

ومن الواضح أنه إذا كان التاريخ يعيد نفسه، فالحاجة إلى العمل، ولا معنى للإصلاح، ولا للتفكير، ولا للتعليم والتثقيف، ولا إلى مقاومة الفقر والجهل والمرض، إذ يكفي أن تقف الأمة من الأمم تنظر عودة واحد أو اثنين أو ثلاثة من عصورها السالفة – إن كان لها من المجد التاريخ شيء سالف – وما عليها إلا أن تنتظر في صبر وجمود، كما ينتظر الميت عودة الروح. أما إذا كانت الأمة من ذوات الماضي المظلم، فليس لها إلا أن تقنع بما هي فيه راضية أو غير راضية، مادام تاريخها سوف يعيد نفسه.

لكني أخشى أن الضرب على هذه النعمة النظرية لا يقرّب دعواي، ولا سيما أن القول بأن التاريخ يعيد نفسه قديم متواتر متأصل، وليس يجدي في معارضته جرس الألفاظ والنظريات ذوات الرنين والصليل، بل يحتاج المتكلم في ذلك الموضوع بالذات إلى البينة والبرهان عن طريق التاريخ نفسه، وفي عصور التاريخ القريبة والبعيدة ما يكفي هذا وذاك في يسر وسهولة. وأقرب الأمثلة لنا التاريخ الإسلامي: هل تدل المقارنة بين العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام على أن التاريخ يعيد نفسه، أم تدل المقارنة بينهما في غير جهد أو عناء على أن العرب غيروا ما بأنفسهم، وغيروا تاريخهم، كما غيروا أفهامهم وأوضاعهم وو أهدافهم، بعد أن أصبحوا أمة واحدة؟ وهل تدل المقارنة بين الخلافة الإسلامية في بغداد وفي القاهرة على أن التاريخ يعيد نفسه، أم تدل على عكس ذلك تماماً؟

وأضرب مثلاً ثانياً من التاريخ الإسلامي بسؤال القاريء إذا كان العالم كله أنجب في تاريخه الطويل غير محمد واحد، ولو كان التاريخ يعيد نفسه لأعاد شخصياته، ولتكرر ظهور أمثال محمد في مختلف العصور الإسلامية مثلاً، وهو ما لم يحدث.

ويقال مثل ذلك في التاريخ العام، من أول قديمه إلى آخر حديثه. هل أتى على التاريخ إلا هانيبال واحد، واسكندر واحد، ويوليوس قيصر واحد، وشارلمان واحد، ونايليون واحد، وهتلر واحد.